مركز نماء للبحوث والدراسات
Namaa Center for Research and Studies

أوراق نماء (١٠٥)

بِناءُ المعرفةِ على أساسِ مفهومِ الحقيقةِ عند (وليام جيمس)

سفيان البطل
باحث في الفلسفة وقضايا الفكر الإنساني
مراكش، المغرب

www.nama-center.com

الآراء الواردة في الورقة لا تعبر بالضرورة عن رأي المركز

مقدمةٌ:

لا يمكن النظر في مفهوم الحقيقة دون النظر في تاريخها، كما لا يمكننا أن ننظر في كل هذا التاريخ لسعته فلسفيًّا ومذهبيًّا، لكننا نختار **أفلاطون** لاعتبار منهجي، ألا وهو: تعرضه للانتقاد من قبل **وليام جيمس**؛ لأنَّه يحاول أن يربط الحقيقة بالمنفعة، غير أنَّ **ريتشارد رورتي** يعتقد أنَّ البراغماتي «**لا يودُّ أن يُحافظ على مفهوم التطابق مع الواقع؛ لأنَّه يستدعي بالضرورة النظرية المادية في المرجع. كما أنَّ البراغماتي لا يملك أيَّ مفهوم عن الحقيقة يُمكِّنه من إعطاء معنًى للأطروحةِ القائلة بأنَّنا إذا حقَّقنا كل ما نطمح إليه من خلال وضع إثباتات؛ فإنَّنا سنواصل إلى ما لا نهاية وضع إثباتات تفشل في التطابق مع بعض الأشياء**» [1].

تتأسس الحقيقة عند أفلاطون على أساس تقسيم العالم إلى: (عالم المُثُل)، و(عالم الحسِّ)، وبالتالي تقسيم المعرفة إلى معرفة صحيحة ومعرفة خاطئة. **بعبارة أخرى**: إنَّ العلم فيه ما هو صحيح، وما هو غير صحيح. إنَّ مصدر المعرفة بالنسبة للرأي الشائع **هو – أوَّلًا –**: إدراك الحسِّ، **وثانيًا**: التصور الصحيح؛ فالإدراك الحسي ليس يتحصل بالعلم الحقيقي؛ لأنَّه «**يُصوِّرُ لنا نفسَ الشيء تصورات متناقضة ومتضاربة، فيُصوِّرُ الشيءَ الواحد باردًا وحارًّا، رطبًا ويابسًا، وهكذا نجدُ أنَّ الحواسَ تخدعُنا خداعًا كبيرًا**» [2].

([1]) مشروحي (الذهبي)، أطروحة دكتوراه بعنوان: «**النزعة البراغماتية الجديدة عند رورتي**»، تحت إشراف محمد سبيلا، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، شعبة الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس، وحدة الحداثة وقضايا الإنسان المعاصر، (سنة ٢٠٠٤م)، (ص/ ١٥٤).

– «يرفض رورتي كل أصناف التطابق، ويعتبر مقولة العالم المتلازم مع مقولة الإطار التصوري ما هي إلَّا تصور للشيء في ذاته، ومن هذا المنظور التاريخاني؛ فإنَّ الفنون والعلوم ومعنى الخطأ والصواب ومؤسسات المجتمع ليست محاولات لتجسيد أو صياغة الحقيقة أو الخير أو الجمال، بل هي محاولات لحل مشكلات وتعديل أفكار ورغبات وأنشطة لكيفية تجلب سعادة أكبر لِمَا هو متحقق منه». (**ص/ ١٧١**).

([2]) بدوي (عبد الرحمن): «**أفلاطون**»، بيروت، دار القلم، الطبعة (١٩٧٩م)، (ص/ ١٣١).

وهذا كلُّه يعني: أنَّ أفلاطون يُميِّزُ بين العلم والتصور؛ لأنَّ العلم والحقيقة عند أفلاطون يتجسَّد في الإدراك اليقيني المطابق للواقع. ويعني هذا أيضًا أنَّ العلم لا يتحصَّلُ إلَّا بالتعليم. أمَّا التصور؛ فيُمكِنُ أن يصل إليه الإنسانُ عن طريق الإقناع؛ ولهذا: «**برع السوفسطائيون في الإقناع بالأكاذيب والتصورات غير المطابقة للواقع**» [٣].

إذن؛ أفلاطون يميز في حديثه عن الحقيقة بين أمرين: العلم الذي يتعلَّق بحقيقة الأشياء على أساس أنَّ هذه الحقيقة حقيقة صادرة بالضرورة عن طبيعة الأشياء نفسها. وما بين التصور الصحيح الذي تناوله في محاورة «**طيماوس**»، و«**الجمهورية**»؛ فالعلم يتعلَّقُ بالوجود والتصوُّرِ بالصيرورة الذي هو مرتبة وسطى بين درجات الوجود، درجة الصيرورة التي هي خليط من التغير المطلق عديم الصورة وهو المادة الأفلاطونية [٤]. وبهذا ربط أفلاطون الحقيقة بالثبات ونظرية الصور، أو علم الماهيات؛ لأنَّ العلم يبحثُ عن الماهية الثابتة ضد النزعة السوفسطائية التي تروج لمقولة: «الإنسان مقياس كل شيء».

يتبيَّنُ لنا أنَّ نظرية الصور عند أفلاطون لها طريقان: طريق المعرفة، وطريق الوجود.

فالأولى: ترتبط بالتصور الصحيح، والعلم الحقيقي كما أشرنا، وقد قلنا: «**إنَّ التصور الصحيح هو خطوة وُسطى بين العلم الحقيقي، وبين اللَّا وجود، فكل ما يُعلم؛ فهو موجود، وكل ما لا يعلم؛ فهو غير موجود، فالوجود الخالص معلوم، واللَّا وجود غير معلوم**» [٥].

نستخلصُ ممَّا سبق أنَّ الحقيقة الأفلاطونية تتعلَّق بنظرية الصور التي تقوم على العلم الحقيقي من حيث المعرفة والوجود الحقيقي من حيث نظرية الوجود، وكلاهما يمتزج بالآخر؛ ليقوم الواحد منهما على الآخر [٦].

([٣]) المرجع نفسه، (ص/ ١٣٢).

([٤]) المرجع نفسه، (ص/ ١٣٣).

– «الفضيلة الحقيقية هي تلك التي تصدر عن العلم، بل إن الإنسان الذي يرتكب إثما وهو عالم به خير منه حينما وهو يرتكب إثمًا وهو غير عالم به»، المرجع نفسه، (ص/ ١٣٣).

([٥]) المرجع نفسه، (ص/ ١٤٥).

([٦]) المرجع نفسه، (ص/ ١٤٨).

– قارن بين رؤية أفلاطون ورؤية راسل للحقيقة:

يبدو أنَّ الانتقال إلى الفلسفة الحديثة يُغيِّرُ من طريقة التعاطي مع مفهوم الحقيقة، نظريًّا ومنهجيًّا؛ فليبنتز من الذين قرأ لهم وليام جيمس. إنَّه يؤسس الحقيقة على المنطق والاستدلال عن طريق النظرية الجوهرية، فالجوهر لا نوافذ له؛ إذ إنَّ كُلَّ جوهر فرد يعكس العالَم؛ لأنَّ العالَم يؤثرُ فيه، بل لأنَّ الله قد وهبه طبيعة تنتج هذه السمة، سمة التناغم في هذا الكون والتفاعل [٧]. فقد جعل ليبنتز للإرادة منزلة كبيرة في مذهبه عن طريق صياغة منطقية لمبدأ السبب الكافي الذي اعتمده في تصوره للوجود والماهية؛ فقد تصور أنَّ العالَم الذي نعيش فيه له عوالِم ممكنة عديدة، فعالَم الإمكان: «**إنْ لم يتناقض مع قوانين المنطق، وهناك عدد لا متناهي من العوالِم الممكنة يتأملها الله جميعها قبل خلق العالَم الراهن، ولمَّا كان الله خيرًا؛ فقد خلق أفضل العوالِم الممكنة، وقد اعتبر الأفضل هو ما يرجح فيه الخير والشر**» [٨].

وبهذا يتجلَّى لنا بأنَّ الحقيقة عند ليبنتز هي حقيقة تختلف عن أفلاطون؛ لأنَّها تتأسس على المنطق والاستدلال العقلي في مدار الميتافيريقا المحكومة بقانونين: (قانون التناقض، وقانون السبب الكافي).

وبالضد من ذلك: نجد **إيمانويل كانط** الذي خطى في عالَم الفلسفة خطوة لها أهميتها ومغزاها على صعيد تاريخ العلم؛ فهو الفيلسوف الحامل للنزعة الإنسانية في عصر التنوير، وهو الفيلسوف الذي أثَّر فيه دافيد هيوم، حيث قال: «هو الذي أنقذني من سبات الدوغمائية (الانغلاق)، ممَّا أثار في نفسه وفكره نزعة الشك والنقد، وهو شعور دفعه إلى إعادة النظر في تاريخ العقل والفلسفة وشروط المعرفة، محدثًا بذلك انقلابًا كوبرنيكيًّا للانتقال من الموضوع إلى الذات، وبهذا سطر لنفسه مشروع العقل ونقد أدواته ووسائله وطريقة إنتاجه للمعرفة.

"Bertrand Russell, on the other hand, argued, while philosophies more concerned with criticism than evidence, the critical review of claims and knowledge must be a constructive one. Absolut escepticism leads nowhere. Philosophical critique should lead to new ideas, systems of knowledge, paradigms and insights. Aristotlefamouslyremarked "I love Plato; but I love truth more" and proceededboth to challenge many of Plato'sepistemological positions and to offer alternative approaches to knowledge in variousfields". Ortiz, Claudia Alvarez, doesphilosophyimprovecriticalthinkingskills ? Submitted in tottalfulfilment of the requirement of the degree of Master of Arts, Department of philosophy-Faculty of Art

(٧) راسل (برتراند): «**تاريخ الفلسفة الغربية**»، ترجمة فتحي شنيطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة (١٩٧٧م)، (ص/ ١٣١).

(٨) راسل (برتراند): «**تاريخ الفلسفة الغربية**»، ترجمة فتحي شنيطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة (١٩٧٧م)، (ص/ ١٤٩).

لقد عرض على محكمة النقد التراكم المعرفي للعقل البشري المثقل والمحكوم بالمتناهي، أي: باعتبار الذات لها وجود حقيقي، وباعتبارها أيضًا مرتبطة بالعالَم الخارجي، هذا ما أدَّى به إلى العلم الحقيقي الذي في معتقد كانط هو الذي يعترف بوجود حدود عامة، وأنَّ العالَم لا يمكن معرفته كما هو، بل كما تقدمه لنا التمثلات الذهنية.

إنَّ الحقيقة عند كانط تتأسس على ثلاثة أسئلة أساسية:

(١) ماذا يمكنني أن أعرف؟

(٢) ماذا يمكنني أن أعمل؟

(٣) ماذا يمكنني أن آمل؟

لينتهي في النهاية إلى سؤال جامع وهو: ما هو الإنسان [٩]؟

يتضح لنا أنَّ هذه التساؤلات ترتبط بثلاث مشكلات: مشكلة المعرفة والدين والأخلاق. وهو ما يحدد اتجاهه العام لصياغة مفهوم الحقيقة التي وضع لها حدودًا بين ما يقبله العقل، وما لا يعرفه. من هنا كان نجاح كانط نجاحًا باهرًا حينما قيَّد المعرفة كي يفسح المجال إلى الإيمان [١٠]؛ إذ وضع حدودًا للعقل من أجل بناء الحقيقة، التي تتأسس على مقولات قبلية للذات [١١] حيث ميَّز بين المنحى النومين (noumin) (الشيء في ذاته)، وبين الظواهر (phenomin) التي تدفع القوة الفاهمة إلى بناء موضوعاتها، **بعبارة أخرى:** يأخذ كانط الموضوعات المباشرة للإدراك تعزو في جزء منها للأشياء الخارجية، وفي الجزء الآخر إلى جهازنا الإدراكي. وهذا ما يتعلَّق بمفهوم الحساسية الخالصة أو الحدس الخالص الذي يرتبط

---

(٩) Lacroix, Jean, Kant et kantisme, que sais-je? n°12-13, "le but de la philosophie, dit kant, c'est d'améliorer l'homme", page 26.

- « le mot (home) ici remplace le mot (raison). Depuis kant le probleme philosophique par excellence est devenir celui de (la finitude) » ibid, page 11.

(١٠) Kant, (E.), critique de la raison pure, trad, tremessayguess et B. pacaud, 6 émeedition, paris, puf 1968, page 18

(١١) راسل (برتراند): «**تاريخ الفلسفة الغربية**»، ترجمة فتحي شنيطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة (١٩٧٧م)، (ص/ ٣٢٦).

بمفهومين قبلين المكان والزمان، **أحدهما**: للحس الخارجي، **والآخر**: للحس الداخلي. وهذا ما يجعل تصور كانط للحقيقة لا ينفصل عن الثورات العلمية المشهودة في عصره مثل فيزياء نيوتن الذي كان هدفه من ورائه هو جعل الموضوعات منشئة من قبل الذات والعقل بعدما كانط موضوعات الطبيعة هي التي تتأسس أو تؤسس لحقيقة الذات، وهذه هي الحقيقة العقلية الخالصة التي تحدث عنها كانط فينقد العقل الخالص، الذي ميز فيه بين المعرفة والفكر على أساس أنَّ نقد العقل هو نقد لقدرة العقل عامة، وليس نقد للكتب والأنساق[١٢].

أمَّا الحقيقة الأخلاقية، فتتأسس عند كانط على كتاب أساسي هو نقد العقل العملي الذي انتقد فيه كانط البراهين التقليدية التي تُؤَكِّدُ على وجود الله معتبرًا أنَّ الله من مسلمات العقل العملي، فالفلسفة الكانطية تقترح يقينًا أخلاقيًّا يتمتع بالضمان الإلهي؛ فلا حياة لإنسان بدون وجود إلهي وبدون وجود الأخلاق، وهو ما سيدفع كانط بالقول إلى وجود الله، إنَّه لا يثبتها، بل يسلم بها، وفي الوقت عينه لا يقبل بالصفات الإلهية؛ لأنَّنا لا نستطيع التفكير فيها أي لا نفكر في الله، بل نعيشه كتجربة أخلاقية؛ لأنَّ الله هو كمالات لا متناهية، فلا يمكننا التعبير عن كائن لا متناهي عن طريق لغة إنسانية متناهية [١٣]. وبالتالي يكون الله مفهومًا أخلاقيًّا إيتيقيًّا يرتبط بالعقل العملي الأخلاقي كمُسلَّمة من مُسلَّماته.

نخلص من هذا: أنَّ الحقيقة عند كانط هي حقيقة تتأسس على تصور نقدي للبناء العقلي للإنسان، الذي كان مدار الموضوعات، فأصبح بثورة كوبرنيكية هو الذي يحدد الموضوعات ويؤسسها ويبنيها؛ **وبالتالي**: كانت الحقيقة على وجهين: الحقيقة العقلية الخالصة التي أسسها في **نقد العقل الخالص**، والحقيقة الأخلاقية العملية التي تحدث عنها في **أسس الميتافيزيقا الأخلاق** و**نقد العقل العملي**، الذي وضح فيه مصدر الحرية لا يمكن أن توجد إلَّا في العقل العملي؛ فإنَّني لا أتحرر من رغباتي الخاصة إلَّا حينما أستحضر وجود الغير كقيمة؛ إذن: فالكائنات العاقلة كما يقول كانط في أسس الميتافيزيقا الأخلاق تسمى وتنعت أشخاصًا؛ لأنَّ طبيعتها توجهها قبليًّا كغايات في ذاتها. ومعنى هذا كشيء محدد بملكة الفهم، وكشيء قابل للاحترام [١٤].

---

(١٢) Lacroix, Jean, Kant et kantisme, que sais-je? n°12-13, page 25.

(١٣) كانط (إيمانويل): «**مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة ممكن أن تصير علمًا، أسس ميتافيزيقا الأخلاق**»، ترجمة محمد فتحي شنيطي، دار موفم للنشر الجزائرية، سنة (١٩٩١م)، (ص/ ٥٢). قارن بينه وبين كتاب «**فلسفة كانط**»، إيميل بوترو، ترجمة عثمان أمين، مصر دار الهيئة للكتاب، السنة (١٩٧٢م)، (ص/ ٢٦٨).

(١٤) Lacroix, Jean, Kant et kantisme, que sais-je ? n°12-13, page 94 -95.

وعلى هذا يتبيَّن لنا ممَّا سبق: أنَّ مفهوم الحقيقة في تاريخ الفلسفة ينبني على تصورات نظرية تتمثل في رؤية كل من أفلاطون وليبنتز وكانط لمباحث المعرفة والوجود والقيم. وقد توقفنا عند هذه النماذج من حيث إنَّها تمثيلية بسبب تطرق وليام جيمس لها في سياق بنائه لمذهبه البراغماتي وتصوراته حول الحقيقة [١٥].

ليس من الغريب القول إنَّ مشروع البراغماتية هو بحث في نظرية المعنى «**كنظرية تجريبية تطمح إلى شرح مكونات لغة طبيعية ما. كأي نظرية أخرى، يمكن أن تكون مختبرة بمقارنة بعض نتائجها مع الحقائق thefacts**» [١٦]؛ لهذا كانت الحقيقة هي مدار تفكير وليام جيمس، من حيث إنَّها مقياس الأفكار والمزاوجة بين الحقيقة والواقع؛ ولهذا: لا يولي البراغماتي أي اهتمام بما إذا كان أفلاطون أو كانط على حق بوجود شيء لا مكاني – زماني يجعل الأحكام الأخلاقية صحيحة [١٧].

إنَّ الحقيقة هي إثبات، والإثبات لا يتجلى إلَّا من خلال معيار صحة الفكرة والحدث، على أساس أنَّ الأفكار تتحقق بالعمل والملاءمة والإفادة والصدق. وهكذا تكون الحقيقة هي التي تحقق الحقيقة العقلية والصورية بموافقتها مع الواقع، فضلًا عن ذلك الاتفاق كقناة لإيصال فكرة راهنة لحظة انفتاحها على مختلف المحطات العقلية أو التجريبية.

- "la loi morale est définition même de la personne, ce qui lui donne sa dignité" ibid; page 95.

([١٥]) Rorty, Richard: "itstruths, as jamessaid, islargly a matter of itsability to perform "a marriagefunction" between the deposit of oldtruth and the "anomaly" whichsuggestedit in the first place",philosophy and the mirror of nature, princtonuniversitypressprinceton, new jersey, 1979, page 284.

([١٦]) Donald Davidson, Truth and Meaning, Language in Use IncludingWittgenstein'sComments on Frazer and a Symposium on Mood and Language-Games (Sep., 1967), Published by: Springer, Vol. 17, No. 3, p 311.

([١٧]) مشروحي (الذهبي): أطروحة دكتوراه بعنوان: «**النزعة البراغماتية الجديدة عند رورتي**»، تحت إشراف محمد سبيلا، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، شعبة الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس، وحدة الحداثة وقضايا الإنسان المعاصر، سنة (٢٠٠٤م). (ص/ ١٥٢).

فالحقيقة هي الشروط والظروف التي تلائم الواقع والمنطق العقلي، وهكذا فرهان البحث عنها هو رهان البحث عن شروطها. إنَّ العلاقة بين الفكرة والموضوع هي التي تنتج لنا المعنى عن طريق الاتفاق واستحضار مرجع الواقع وصدق الفكرة، ولعلَّ هذا ما يدافع عنه البراغماتي من خلال أنَّ الحقيقة هي طريقة استخدام الأفكار وفق ثلاثة أقسام: قضية مُسلَّمة، تقرير الحقيقة، ثم استنتاج معمم.

ونخلص من هذا: أنَّ الشعور والحقيقة وجهان لعملة واحدة؛ فالشعور هو الحقيقة، فلا يمكن أن يفكر وليام جيمس إلَّا من خلال هذه الحقيقة، أي: حقيقة التفكير في العالَم الخارجي لإعادة تفسيره بصورة دائمة، والعلاقة التي تجعلنا نكون معرفة عن الأشياء والموجودات، أي: سياق هذه المعرفة من خلال رؤية براغماتية تنظر إلى التجارب في إطار سياقات مختلفة. من هنا كان الشعور هو الانطباع والمنطلق الأساس في رؤية وليام جيمس للواقع، ومعرفة الحقيقة، وعلاقة تطابق الشيء بها، كلُّ هذا يدلُّ على أنَّ الحقيقة في معناها البراغماتي هي علاقة أجزاء تصورية ذهنية، تنتج عن خبرتنا الحسية، رغم أنَّ البحث عن الحقيقة عند وليام جيمس لا يتحقق إلَّا بعد الخروج من أزمة الفهم، إلَّا فهم الأزمة عن طريق التفكير النقدي.

(١) الحقيقة كإثبات:

شهدت قضية الحقيقة في مرحلتها الأولية انتقادات لاذعة وأحكامًا مسبقة، وبالرغم من أنَّه اعتبرت لدى البعض مقبولة لحد ما؛ إلَّا أنَّها ظلَّت عديمة الأهمية، لذى كان الحق دائما مبتغى كل فرد أو مذهب في أفكاره.

فالحقُّ يعتبر مقياس الأفكار وصفة تُعنى بمدى اتفاق هذه الأفكار مع الحقيقة والواقع، والاتفاق الذي نقصده هنا ليس بمعنى محاكاة فكرة صحيحة لواقعها فقط، بل إنَّ المسألة أعمق من ذلك؛ لأنَّ أفكارنا لا تستطيع أن تنسخ بالتحديد موضوعها، وبالتالي لم يعد الاتفاق ذا مقصد مثالي، حيث ينتهي إلى الإرادة الإلهية لِما نفكر فيه، ولا هو يعني مطابقة النسخة للأصل وأخيرًا ليس الاتفاق كحق؛ علاقة ثابتة بين فكرنا والواقع.

من هذا التقديم انطلق **وليام جيمس** في طرح أهم إشكالاته، يقول: «**إذا سلَّمنا بأنَّ فكرةً أو معتقدًا صحيحٌ، فما هو الفرق الملموس الذي يحدثه كونه صحيحًا في الحياة الواقعية لأي امرئ؟ كيف تتحقق الحقيقة؟ ما هي الخبرات**

التي ستكون مختلفة عن تلك التي تحدث إذا كان المعتقد زائفًا وباطلًا؟ وباختصار ما هي القيمة الفورية، للحق، اختباريًّا وتجريبيًّا وممارسةً؟» [١٨].

إنَّ الجواب على هذه الإشكالات بطبيعة الحال ليس بالأمر الهيِّن كما يبدو لنا، حتى وإن كان الفيلسوف البراغماتي نفسه يُقدِّم لنا جوابًا مباشرة بعد طرحه ذاك؛ فهو يجعل الأفكار الصحيحة: «**هي تلك التي يمكننا استيعابها، وتقبلها، وتعزيزها، والتحقق منها، أمَّا الأفكار غير الصحيحة (الخاطئة)؛ فهي تلك التي لا تحقق لنا الشروط السابقة**»[١٩].

إنَّ النظر في هذا الكلام نجد له مغزًى يُعرف لنا معنى الحقيقة، إنَّها **الصدق العملي**؛ لأنَّه كل ما تعرف به الحقيقة وتعنيه؛ لذلك تعتبر الأفكار التي بفعل حادث تمكننا من إدراكها بمشروعيتها، فنستدل على صحتها ونثبتها هي أفكار صادقة، كما لا يجب اعتبار صدقها هذا صفة لها مرتبطة بها ولازمة لها، بل على العكس إنَّ صدقها حادث لها بعد أن قامت بتأكيد صلاحيتها. من هنا كان «**صدقها في الحقيقة ليس إلَّا عملية إثبات صدقها أو إثبات تحققها، ولا تستمد صلاحيتها إلَّا من عملية تأكيد هذه الصلاحية**» [٢٠].

بهذا المعنى تصبح الحقيقة حادثة وليست خاصية أو قانونًا، ومن هنا كان معيار صحتها هو الحدث الذي يطرأ عليها، والذي انطبعت به، وبهذه الطريقة تتحقق إمكانية إقامة الدليل على تحقيق نفسها، ممَّا يدل على نتائج عملية لها، «**فمثل هذه النتائج هي ما يكون في ذهننا كلما نقول إنَّ أفكارنا تتفق مع الواقع أو الحقيقة**» [٢١]. وهي بهذا الشكل تدفعنا لأنْ ننفتح على أفكار أخرى، وأفعال من قبيل ثانٍ، تتصل بما دونها على نحوٍ ما، أو جزء معين، أو حيال قضية أخرى ممَّا يُشكِّل لنا شعورًا مختلفَ لخبرة معينةَ أصيلة، وهذا الشعور يعتبر ضمن إمكانية من إمكاناتنا الأمر الذي يجعل

([١٨]) جيمس (وليام): «**البراجماتية**»، ترجمة محمد علي العريان، تقديم زكي نجيب محمود، القاهرة. المركز القومي للترجمة، سنة (٢٠٠٨م)، (ص/ ٢٣٦).

([١٩]) Putnam, Hilary, James'stheory of truth, the cambridgecompanion to williamjames, edited by ruthannaputnam, wellesleycollege, cambridgeuniversitypress 1997, page 172.

([٢٠]) جيمس (وليام): «**معنى الحقيقة**»، ترجمة وتقديم أحمد الأنصاري، مراجعة حسن حنفي، المركز القومي للترجمة القاهرة، الطبعة الأولى (٢٠٠٨م)، (ص/ ١٧).

([٢١])جيمس (وليام): «**البراجماتية**»، ترجمة محمد علي العريان، تقديم زكي نجيب محمود، القاهرة. المركز القومي للترجمة، سنة (٢٠٠٨م)، (ص/ ٢٣٨).

من الأفكار الأصلية في حالة اتفاق قارة. أمَّا اللحظة التي تدعونا للارتباط أو الانتقال في فكرة إلى فكرة، أو من جزء في فكرة لنقطة أخرى على أساس أنَّ هذه العملية تخدم مسألة تقدمية متناغمة ... فإنَّ هذه العملية هي ما يرشدنا إلى إمكان إثبات فكرة وتحقيقها.

من هنا كانت الأفكار هي أدوات للعمل والأداء، وبالرغم من هذا الأخير يبدو كتعريف للبراغماتية، لكن لا يسعنا إلَّا أن نعترف بأنَّ هذا الأمر يتماشى مع ما استدعاه الطلب، فنحن نعيش في عالَمِ الحقائق والوقائع، وهذه الحقائق والوقائع ممكن أن تكون مفيدة بقدر ما قد تكون غير ذلك، وقيمتها الأصلية هي في الأفكار التي تغني من تأثيرها في الإدراك ابتداءً من المعنى الذي تصبوا إليه، ولعلَّ هذا ما يجعل لحيازة عقائد صحيحة أهمية بالغة بالنسبة للحياة الإنسانية، وبالنسبة لهذا الغرض لا شيء أكثر جلاءً من الأفكار التي تملك قدرة الإفصاح عن ذاتها في سياق تنبئي توقعي؛ إذ تُعدُّ أفكارًا من هذا القبيل هي الأصح في مجال التحقيق والإثبات، وكما قلنا: إنَّ الأفكار الصحيحة هي أدوات للعمل والأداء؛ فكذلك امتلاك الحقيقة يُعدُّ وسيلةً وأداةً أيضًا.

وبالتالي: الفكرة الصحيحة هي التي تحقق لنا المنفعة، حيث يجب أن تكون ملموسة وقابلة للقياس؛ ولهذا: فهي تحتفي بطابع قيمي بالنسبة إلينا انطلاقًا من الأهمية العملية لموضوعاتها، وبما أنَّنا في زمن تسكنه النسبية؛ فإنَّ بعض أفكارنا مهما تبلغ من درجة الصحة قد لا تُفيدنا في الوقت الراهن، لكن يجب ألَّا يكون هذا سببًا في تركها، بل على العكس؛ إنَّ مؤلف **البراجماتية** يدعونا إلى تحصيل أكبر قدر من المعارف والأفكار الصحيحة؛ لأنَّه لربما سيأتي عليها وقت نقف عند أهميتها وقيمتها العملية، أنذاك في اللحظة التي تدعونا لاستحضار هذه الأفكار سنكون قد أحطنا بمعلومات جديدة ومتعددة، ستكون لها قيمة نفعية تُساهم في تأدية عمل ما داخل المجتمع ممَّا سيجعل اعتقادنا فيها أكثر حيوية.

وفي هذا الأمر يكون في وسعنا القول عنها: «**إنَّها مفيدةً؛ لأنَّها صحيحةٌ**»، **أو** «**إنَّها صحيحةٌ؛ لأنَّها مفيدةً**» [٢٢]، ومعنى الكلام هنا: أنَّ الفكرة التي كانت لدينا صارت متحققةً في العالَم، وممكنةَ الإثباتِ.

([٢٢]) جيمس (وليام): «**البراجماتية**»، ترجمة محمد علي العريان، تقديم زكي نجيب محمود، القاهرة. المركز القومي للترجمة، سنة (٢٠٠٨م)، (ص/ ٢٤١).

بهذه الطريقة العملية في التفكير تنتهي البراغماتية في بحثها عن الحقيقة على أساس أنَّها شيء «**يرتبط بالضرورة والحتم بالطريقة التي تُفضي بها لحظة واحدة من لحظات خبرتنا إلى اللحظات الأخرى التي سيكون من المجدي أن تفضي إليها**» [٢٣]. وبناءً على هذا المستوى البديهي، يكون التفكير العقلي صحيحًا مُتمثلًا في وظيفته الإرشادية ورجوعًا إلى السلسلة المكونة من الحلقات التي تشكل وتعني كل حلقة واحدة منها زاوية نظر مختلفة؛ فإنَّ بجانب هذه النظرة يجب أن تصاحبها فكرة صحيحة، بحيث إنَّ هذه الفكرة الصحيحة بالمعنى الذي أشرنا إليه في علاقة بباقي الحلقات الأخرى وزوايا النظر، وهذا ما سيعقد لنا صلة نافعة فيما بين كل هذه الزوايا، أي: ستُطبع بقيمة نفعية ممَّا سيميزها بقدرتها على كشف موضوعات أبعد، ومنه يكون الغرض الأساسي عندنا هنا هو «**تحقيق المضمون أو الفحوى الكاشف عن معنى خفي**» [٢٤].

إنَّ عالِم النفس الأمريكي جيمس لا يفكر في التركيبات إلَّا من حيث هي منتوجات محضة للحياة العامة ذاتها، وعلى وجه الخصوص هو يفكر ديناميتها. وهذا يتجلى بعكس **هوسرل** الذي يعطي أهمية للقصدية بالمعنى الخاص الذي يطرح

([٢٣]) جيمس (وليام): «**البراجماتية**»، ترجمة محمد علي العريان، تقديم زكي نجيب محمود، القاهرة. المركز القومي للترجمة، سنة (٢٠٠٨م)، (ص/ ٢٤١، ٢٤٢).

([٢٤]) المصدر نفسه، (ص/ ٢٤٢).

(الأنا) كفعل الحامل للمسؤولية. الأمر الذي يعني أنَّ الحياة عند **وليام جيمس** مرتبطة بدينامية الوعي والوعي مرتبط بها، بينما لدى **هوسرل** الوعي هو فعل قصدي وهو الوعي بشيء ما [٢٥].

إذن: فعملية الإثبات والتحقيق يجب ألَّا تتعارض مع اعتقادنا بديهيًّا، ما دامت هذه العملية لا تبطل القيمة الوظيفية للأشياء، فأحيانًا قد نسلم بالأشياء من حيث قيمتها العملية وأدائها الذي عرضناه لها، وهذا الأمر ندركه على أنَّه حقيقة دون حاجتنا لإثبات طريقة عمله، وما دامت أيضًا وظيفة الشيء التي افترضنا أن يعمل لها تحقق لنا منفعة دون الحاجة لتعميق معرفتنا بكيف يعمل هذا الشيء، قد نعتبر هذا نوعًا من التحقيق. من هنا كانت معرفة الشيء مع اعتقادنا فيه هو ما يشكل لنا تحقيق فرض بما أنَّ هذا الفرض لم يُلقِ بنا في خانة من التناقض أو الإحباط، بل إلى إمكانية الاستعمال والاقتناع.

ومثل الساعة التي نستعملها تمام الاستعمال، ونتحرك عقب دوران عقاربها، هكذا نصف الحقيقة الكاملة، إنَّنا لا نهتم بالسعة في أجزائها وتفاصيلها وهي مفككة، وقليل من يفعل ذلك؛ بل إنَّ أغلب ما يهمنا فيها قيمتها الوظيفية وهي تعمل، إنَّ الساعة المكتملة الأجزاء كالحقيقة التي توجهنا نحو التحقق المباشر، حيث إنَّ أجزائها ضرورة تُؤدِّي إلى اتصال مباشر في الذهن، ثم ليكون متحققًا في الواقع، وبما أنَّ عقاربها تدور إلَّا ونكون في جو من الائتمان لها، هكذا نفس الأمر بالنسبة للحقيقة التي كانت أفكارًا ومعتقدات لم يعمق البحث فيها وفي طريقة عملها، بل ثم الاطمئنان لها لِمَا تؤديه من وظيفة خيالية.

إنَّ لكل شخص حقيقة يفترضها، ومن خلال الجمع بين هذا الزخم من الحقائق قد ننتهي إلى معتقدات نقوِّمُ عليها أدلة بطريقة ملموسة تكون دعائم كل ما سبق، وبالرغم من أنَّ هذا القول هنا يبدو فيه شيء من التناقض إلَّا أنَّ فكرة **وليام جيمس** هنا تتمحورُ حول إثبات وجود الأشياء في أنواع وفئات غير منفردة، فبالرغم من كونها – مثلًا – ظاهرة لا تتكرر إلَّا أنَّ القانون الذي أخذناه عنها ممكن تطبيقه على باقي الظواهر.

---

(٢٥) Leclercq, Bruno, Phénoménologie et pragmatisme: y a-t-il rupture ou continuité entre attitudes théoriques et attitudes pratiques ? Université de Liège, Bulletin d'analyse phénoménologique IV 3, 2008 (Actes 1), page 108.

كل هذا الذي سبق يجب أن يطرح في أذهاننا مدى إلمام الفيلسوف وانفتاحه على العلوم الحقة والطبيعية، كما يدل في ناحية معينة على تأثر **الفيلسوف** بنظرية الفوضى من خلال قوله: «**والعقل الذي يعتاد التنقيب عن نوع الشيء الماثل أمامه، ويتصرف بمقتضى قانون النوع مباشرة، دون أن يتوقف للتحقيق وإقامة الدليل، سيكون عقلًا** «**صحيحًا**» **أو** «**حقيقيًا**» **في تسع وتسعين حالة من حالات الطوارئ، الأمر الذي يثبت أنَّه كذلك بدليل مسلكه الملائم لكل شيء يصادفه دون أن يلقى نقضًا أو دحضًا**» [٢٦].

إذ يأخذ نفس القانون ونفس الخصائص العلمية لهذه النظرية ويسقطها هنا على فكرة النوع خاصته هو، وسواء كان هذا النوع المفرد أو الظاهرة المتميزة قد حقق سبيل الوصول إليه؛ فهو يُعد صحيحًا كفكرة، ولـمَّا تكون هذه النظرة للحقيقة نتيجة للعلاقات التي تقع بين الأفكار العقلية، هنا يتشكَّل لنا مجال آخر: «**تحصل فيه معتقدات صحيحة وباطلة، وهنا تكون العقائد مطلقة، وبدون قيد ولا شرط**» [٢٧]، وصحتها هنا تكون بمعنى أنَّها حاملة لاسم أو صفة (مبدأ) ينسحب على كل القضايا؛ وبالتالي: فهي تسقط في الذهن انطلاقًا من وضوحها إدراكيًّا ضرورة، وليس كتحقيق حسي لزومًا.

وبعدُ: فالحقيقة كمفهوم عامٍّ، وكفكرة تتعلَّق بنتيجة، أي: إنَّ دورها ممكن أن يكون متمثلًا في الإرشاد الموصل لخلاصة ما، هذا الإرشاد يدفعنا لأنْ نربط فكرة مجردة بأحرف لتتشكل في الأخير كنظم من الحقيقة العقلية والصورية، وهذا لا يتم إلَّا تحت الشروط التي من خلالها تنسحب على الواقع أيضًا. **بعبارة أخرى**: لنجعل الحقيقة كدلالة مطلقة مثلًا، إنَّ هذه الدلالة هي مجموع أحرف أعطت لنا كلمة حاملة لمعنى مفيد، معناها هذا أخذته لانصبابها على شيء معين. قيمة هذه الدلالة لا تتجسد في المعنى الذي تحمله فقط، بل أيضًا في المعنى الذي ترمي إليه واتصالها بالواقع وانسحابها عليه ممَّا يجعلها تبدو كحقيقة بالنسبة إلينا. **إذن**: القاعدة التي نستنتجها هنا هي إذا اتفقت الألفاظ والنتائج، ففي وسعنا أن نعتبر أفكارنا صحيحة.

ثم تأتي بعد هذه المرحلة البديهية اللحظة التي نستعين فيها بحواسنا لنضع كل تفكيرنا والعلاقات التي تشكل أنظمة ربط وبحث واستكشاف تحت قدم المجازفة، هذه الخطوة هي ما يمكن أن نسميه بالتجربة الحسية، يقول بهذا الصدد **وليام**

([٢٦]) جيمس (وليام): «**البراجماتية**»، ترجمة محمد علي العريان، تقديم زكي نجيب محمود، القاهرة. المركز القومي للترجمة، سنة (٢٠٠٨م)، (ص/ ٢٤٦).

([٢٧]) المصدر نفسه، (ص/ ٢٤٧).

جيمس: «وهكذا نجد أنَّ عقلنا محشور كالإسفين أو الوتد بشكل محكم ومتوتر: بين إلزامات وإجبارات النظام الحسي الإدراكي، وبين إلزامات وإجبارات النظام المثالي، فأفكارنا يجب أن تتفق مع الوقائع والحقائق، سواء أكانت هذه الحقائق ملموسة أم مجردة، سواء أكانت وقائع أم مبادئ» [٢٨].

ولـمَّا كانت أفكارنا كما رأينا الآن من الواجب أن **تتفق** مع الوقع وكذلك نفس الأمر بالنسبة للحقائق، فإمَّا هي وقائع ملموسة مدركة حسيًّا، أو هي مجردة مدركة بديهيًّا، وبما أنَّه لا يمكن لجديد أن يكون كذلك بشكل محض، بل لا بُدَّ وأن تتداخله أفكار قديمة، كان من الواجب على أي فكرة جديدة أن تأخذ بعين الاعتبار هذان التصورين. فالاتفاق الذي نطلبه ليس مجرد محاكاة للحقيقة ونسخ لها، بل أيضًا يجب أن يصب هذا الاتفاق بشكل ضروري إلى إرشاد واهتداء يفضي إلى موضوعات أخرى، وبهذا يجب أن تتميز أفكارنا، أن «**تُؤدِّي إلى الارتباط والانطباق والرصانة والخلو من التناقض والثبات والمعاشرة الإنسانية الدافقة في تيار انسيابي موصول**» [٢٩].

إذن: مفهوم **الاتفاق** عليه أن يجسد لنا قناة لإيصال فكرة راهنة إلى لحظة انفتاحها على مختلف المحطات العقلية وانتقالًا بين الأفراد، إنَّه «**طريقة لقياس سطح ظاهرة لكي تربط تغييراتها وتضبطها على قاعدة بسيطة**» [٣٠]. هكذا تكون الحقيقة مرتبطة بالحياة كما هي مكتشفة أو مخلوقة، وهذا الأمر الأخير يفيد ضربًا للمذهب العقلي الذي يعتبر الحقيقة كإدراك خالص، حيث يجعلونها في معرفة الأشياء بالاتجاه إليها وفقط. لكن عندما يقول البراغماتي بأنَّ الحقيقة مخلوقة؛ فهنا يكون الافتراض يعني إمكان إقامة الدليل على حقيقة الشيء قبل مباشرة الشيء نفسه «**فالحقيقة توجد قبل الشيء**» [٣١].

يضيف لهذا الكلام عالِم النفس **وليام جيمس** قولًا آخر يمكن أن نعتبره خلاصة لفكرته، يقول: «**ومن ثَمَّ؛ فإنَّ «الحقيقي» – باختصار جدًّا – ليس سوى المطلوب النافع الموافق في سبيل تفكيرنا، تمامًا مثلما أنَّه «الصحيح» ليس سوى المطلوب النافع الموافق في سبيل سلوكنا**» [٣٢]. من هنا نفهم أنَّه مهما كانت الحقيقة ما

([٢٨]) المصدر نفسه، (ص/ ٢٤٩، ٢٥٠).

([٢٩]) المصدر نفسه، (ص/ ٢٥٤).

([٣٠]) المصدر نفسه، (ص/ ٢٥٥).

([٣١]) المصدر نفسه، (ص/ ٢٦١).

([٣٢]) المصدر نفسه، (ص/ ٢٦٢).

هي عليه، لا بُدَّ وأن يتعيَّن العيش وفقًا لها كما يجب أن نكون مستعدين لتجاوزها في اللحظة التي لا تعود تخدم مطالبنا. أي: يجب أن نكون نعيش وفقًا لأية الحقيقة نكتشفها أو نخلقها، وعلى هذه الحقيقة ألَّا نفترضها كحقيقة نهائية، بل المفروض أن نكون على أتم استعداد للأخذ بغيرها ما دامت تعتبر مطلوبة ونافعة لنا.

من هنا نتساءل: ما المقصود بالحقيقة عند **وليام جيمس؟** وما جديده في ذلك؟ كيف يقوم بالتأصيل لها ووضع شروطها لتكون حقيقة؟ فبعدما كان عند **شيلر** الحقيقي كامن في ذاك الذي يعمل ويؤدي وظيفة معينة، وعند **جون ديوي** تتحدد فيما يحقق الرضا والإشباع وتتمثل في انتقاده «**للتصور التقليدي للحقيقة، وقد تجسم هذا في النظرية التي يدعوها (الأداتية)؛ فالحقيقة كما تصورها معظم الفلاسفة المحترفين ثابتة ونهائية، كامنة وخالدة، وفي مصطلح ديني بمعنى توحدها مع أفكار الله**» [٣٣]، كانت عند **وليام جيمس** فكرة الحقيقة كل ذاك مضافًا إليه مفاهيم مركزية، كالاتفاق والمنفعة والصحة ... من هنا انطلقنا للبحث في ظروف نشأة وإنتاج حقيقة ما حتى تتضح لنا فكرة فيلسوفنا جيمس البراغماتية عن الحقيقي.

(١,١) ظروف إنتاج المعرفة:

إنَّ ما يخلق لنا حقيقة هو الظروف والشروط التي دعتها لتعلن عن نفسها أنَّها كذلك، فمن الظروف ألَّا يفكر أحدٌ خارجًا عمَّا سبق، ومن الشروط أن يفكر فيما يلائم الواقعة و المنطق العقلي، فالظرف والشرط شأنهما شأن الحقيقة السابقة والواقعة الجديدة، وعند تطعيم الأولى بالثانية يخلق لدينا حقيقة جديدة.

من الغريب أن نرى إنسانًا يخلق حقيقة ويغرق فيها، بل إنَّ ما يزيد الأمر غرابة هو أنَّ هذا الإنسان معترف له بخلقه لحقائق لا سبيل له لتثبيتها، ولعلَّ ذلك راجع للطابع الشخصي الذي يملئ القضايا التي نتوقف عليها لتحقق لنا إشباعًا ورضًا، **إذن:** هنا يكمن السرُّ في الذي يسبب لنا اعوجاجًا في قواعد تفكيرنا وتقديمنا إجابات عن أسئلة العالم والإنسان الذي هو جزء منه.

([٣٣]) راسل(برتراند): «**تاريخ الفلسفة الغربية**»، ترجمة فتحي شنيطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة (١٩٧٧م)، (ص/ ٤٧٨).
– أثرث نظرة جون ديوي البيولوجية في فهم الحقيقة المتدرجة نحو اليقين. ويقول عنه راسل: «لا يهدف ديوي إلى أحكام صادقة صدقًا مطلقًا، أو يدين نقائضها بأنَّها كاذبة مطلقًا، وفي رأيي هنالك عملية تسمى تحقيق، وهي شكل واحد من أشكال التكيف المتبادل بين الكائن العضوي و بيئته». المرجع السابق، انظر (ص/ ٤٨١).

ولنكون أكثر واقعية يجب ألَّا ننكر أنَّ الواقع الذي ندخله في حساباتنا بدرجة أولى يعني تلك الدفقة الشعورية، إنَّها كائنة فينا ولا يسعنا أن نردها، فهي ليست صحيحة أو خاطئة، وإنَّما هذا الحكم القيمي يخصُّ فقط الصفة، أو التعبير الذي نسقطه على هذا الشعور، أو هذه الأحاسيس.

وبدرجة ثانية يعني الواقع «**العلاقات التي تحصل بين مشاعرنا أو بين صورها ونسخها في عقولنا**» [٣٤]، وهذا التعريف يقسمه **وليام جيمس** إلى جزأين:

(١) يعني أنَّ إنشاء أو حدوث العلاقة بين المشاعر والصور وعلاقتهما بالعقل هي علاقة عرضية بفعل التحول على غرار علاقة الزمان والمكان.

(٢) هي علاقات ثابتة مبنية على إدراك الوقائع والأحداث وفق شروط قبلية تنتمي إلى الطبائع الباطنية بشكل دقيق. وكل هذا يقع تحت مسألة الإدراك.

أمَّا بخصوص العلاقات العميقة الباطنية؛ فلا يمكننا إدراكها وتمييزها إلَّا إذا قورنت حدودها المحسوسة، أي إعادة صياغتها بشكل قابل للفهم ممَّا يشكل لنا مرحلة ثالثة من الحقيقة ننتهي بالإذعان لها لاعتمادها كمرحلة أساسية على التفكير الرياضي والمنطقي.

إذن: بما أنَّ البحث في الحقيقة رهين بالنظر في ظروف وشروط إنتاجها كحقيقة وسبب اعتبارها على أساس أنَّها كذلك، يكون كل ما «**نقوله عن الحقيقة، أو الواقع يتوقف على البعد الذي نلقي فيه بالحقيقة أو الواقع**» [٣٥]. **وبالتالي:** فكل حقيقة إلَّا وتتوقف علينا نحن، ولـمَّا نسأل عن أية حقيقة نتحدث؟ فكل ظواهر العالَم وحقائقه صامتة، ونحن مَن نُؤوِّله، وهذا التأويل والتفسير يختلف بحسب اختلاف الأشخاص ودرجات إدراكهم. **بعبارة أخرى يقولها عالِم النفس الأمريكي:** «**وبالاختصار: فإنَّنا نتسلَّم كتلة الرخام، ولكننا نحن الذين ننحت التمثال بأنفسنا**» [٣٦]، وهكذا تصير

([٣٤]) جيمس (وليام): «**البراجماتية**»، ترجمة محمد علي العريان، تقديم زكي نجيب محمود، القاهرة. المركز القومي للترجمة، سنة (٢٠٠٨م)، (ص/ ٢٨٦).

([٣٥]) المصدر نفسه، (ص/ ٢٨٨).

([٣٦]) المصدر نفسه، (ص/ ٢٨٩).

ما يحقق لنا إشباعًا وقناعة وصراحة إنَّنا هنا ضمنيًّا نعترف أنَّنا لا نملكها بعد، ولكن لا ننكر كأصحاب المذهب العقلي اتصالها بما هو عامل إنساني يساهم في تطور ونمو تجاربنا الإدراكية.

لماذا؟ لأنَّ هذه الطبائع الإنسانية تتفق مع الواقعة وتحدث واقعًا محسوسًا معينًا يحتمل الإضافة، ممَّا يجعلها أكثر وضوحًا وتبيانًا؛ **فإذن**: لِمَا ننكرها وهي لا تخضع لثنائية الصحيح أو الخاطئ، إنَّما يكون الأمر بالقياس بالحالة النفسية التي يكون فيها الفرد، وفي هذا السياق نكسر وحدة الحقيقة الواقعة المحسوسة إلى أجزاء وفق إرادتنا، فنخلق منها القضية الصحيحة والقضية الخاطئة ونخلق مبرراتنا لقضايانا.

إنَّ هذا العرض هو فقط ليثبت لنا الفيلسوف الأمريكي **وليام جيمس** إنسية الإنسان، ودورها في خلق حقائقنا؛ **ولهذا**: كانت الحقيقة تنمو داخل كل تجاربنا المحدودة والمتناهية إلَّا أنَّها تبقى تحتفظ بصيغتها البراغماتية، أي: إنَّها نفعية تفتحنا على احتمالات أخرى كما هي تقطع مع غيرها، فإذا كانت الفكرة ممكن أن تبرهن على أنَّ لها أية آثار ونتائج على حياتنا، فهي ذات معنى، وإذا أدَّى هذا المعنى وظيفته؛ فهو جزء من حقيقة والواجب أن نتشبث به.

(٢) المعنى الحاصل عن علاقة الفكرة والموضوع:

تدور فكرة الحقيقة الجوهرية حول العلاقة الحاصلة بين الفكرة وموضوعها؛ لذلك: كانت الحقيقة مجرد صفة تروم إلى مدى اتفاق أفكارنا مع الواقع، فالاتفاق هنا هو ما يفتحنا على القيمة الفورية للحقيقة، بحيث ننظر في صحة أفكارنا، ونثبت على أنَّها كذلك بقدرتنا على استيعابها وتمثيلها وإقامة الحجة والدليل عليها في حين أنَّ الأفكار الخاطئة لا تعزونا لتحقيق هذا، من هنا تستمد الحقيقة معناها؛ أي ممَّا نعرفه عنها وهذه المعرفة مرتبطة بظروف وشروط تجعلها ممكنة التطور والنمو: «**إنَّ الحق يحدث للفكرة. الفكرة تصبح حقيقية أو صحيحة. إنَّ الأحداث تجعلها صحيحة أو حقيقية**» [٣٧]. من هنا كان صدقها هو في الأصل سبيل إثباتها لنفسها لتكون راسخة ومشروعة بإقامة الدليل والبرهنة عليها.

فالاتفاق – كما رأينا – مع الواقع أو الحقيقة ليس له معنى إلَّا الاهتداء: إمَّا عقليًّا وفكريًّا، وإما عمليًّا وإجرائيًّا، فما من فكرة تمدنا بالقدرة على معالجة الواقع، وما يتعلق به إلَّا وكانت تتفق مع الطلب، وهذا الاتفاق هو ما يجعلها صحيحة

([٣٧]) جيمس (وليام): «**البراجماتية**»، ترجمة محمد علي العريان، تقديم زكي نجيب محمود، القاهرة. المركز القومي للترجمة، سنة (٢٠٠٨م)، (ص/ ٣٥٢).

بالنسبة لتلك الواقعة؛ **وبالتالي**: عرف لنا **وليام جيمس** من خلال هذا الحقيقي بـ «**ليس سوى النافع الموافق المطلوب في سبيل تفكيرنا، تمامًا كما أنَّ الصواب ليس سوى الموافق النافع المطلوب في سبيل مسلكنا**» [٣٨]؛ **إذن**: فالطلب يتوسط الفكرة والواقع، وتحقق هذا الطلب هو ما يقدم لنا الفكرة التي في الذهن صحيحة عقليًّا وعمليًّا. وصدقه هنا هو بمدى اتفاقه مع المطلوب، أي: الحاجة التي تحقق لنا تكيفًا مع كل جوانب الحياة، وتناسب أسلوب حياتنا العملي فيها، بهذا أصبح الصدق يعد «**الشيء الوحيد النافع في طريقة تفكيرنا تمامًا مثلما يعد الصواب المفيد الوحيد في طريقة سلوكنا**» [٣٩]، وبهذا تصبح الحقيقة في معنى من معانيها تعني صدق الفكرة بتحققها في الواقع كما تعني المنفعة في تعديلها للسلوك. وهذا يدفعنا إلى الاعتقاد «**بوجود اقتران باطني بين التبرير والحقيقة، أو بين الإقرار واللَّاشرطية أو الاعتقاد بأنَّ المقاربة الانكماشية للحقيقة لا تكون مقبولة إلَّا إذا استطاعت مواصلة تأييد الحدوس الواقعية**» [٤٠].

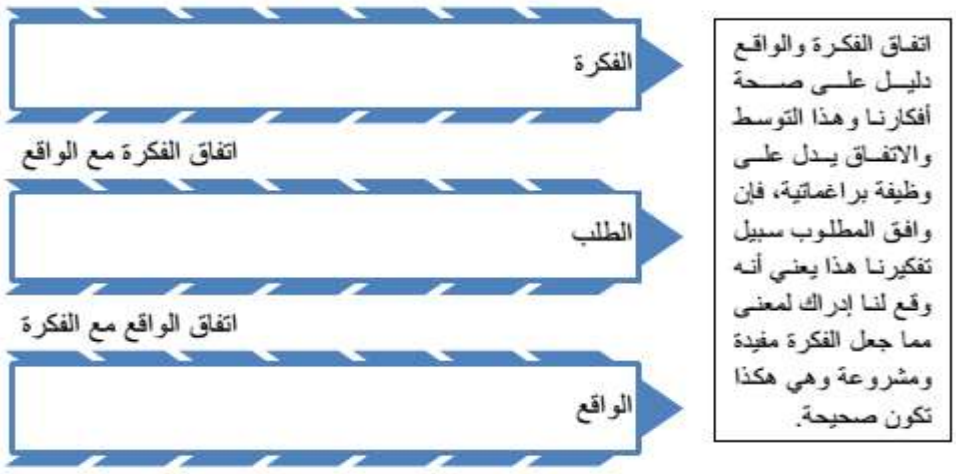

([٣٨]) المصدر نفسه، (ص/ ٣٥٣).

([٣٩]) جيمس (وليام): «**معنى الحقيقة**»، ترجمة وتقديم أحمد الأنصاري، مراجعة حسن حنفي، المركز القومي للترجمة القاهرة، الطبعة الأولى (٢٠٠٨م)، (ص/ ١٨).

([٤٠]) مشروحي (الذهبي): أطروحة دكتوراه بعنوان: «**النزعة البراغماتية الجديدة عند رورتي**»، تحت إشراف محمد سبيلا، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، شعبة الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس، وحدة الحداثة وقضايا الإنسان المعاصر، سنة (٢٠٠٤)، (ص/ ٢٠٤).

– «ينطلق رورتي من خلاصة أنَّ كل ثقافة متطورة تحتاج إلى حقل معين، أي مجموعة من الممارسات لتكون نموذج النشاط الإنساني، وكقاطرة تجر وراءها باقي حقول الثقافة في التقليد الفلسفي الغربي، كان هذا النموذج هو المعرفة– امتلاك أفكار صحيحة ومبررة أو بالأحرى أفكار مقنعة بطبيعتها تغني عن كل تبرير». المصدر السابق، (ص/ ٢٧٦).

إنَّ الحديث بالنسبة للبراغماتي عن الحقيقة هو حول طريقة استخدام الأفكار، وإمكان توظيفها، وطرق تشغيلها؛ **لذلك**: كان البحث في صميم الحقيقة هو حول ما تدل عليه الكلمة من معنى، وليس على ما يتصل بها من وقائع متضمنة كمواقف، أي: جعل الحقيقة موضوعًا أو شيئًا كما فعل معارضو البراغماتية.

وفي فضاء رحب يتسم بالتعدد المرجعي، نجد **وليام جيمس** ينفتح على المذهب الشكي الغير المحافظ على الأسس والحقائق الثابتة، لإقامة الحقيقة براغماتيًّا ووضع قواعدها؛ فهو يقسم هذه التجربة الراديكالية **إلى ثلاثة أقسام كما على الشكل التالي**:

(١) قضية مُسلَّمة: هي التي ينطلق منها المتحاورون والمتجادلون حولها، من قبيل التسليم بالتعاريف أو التحديدات مشتقة من الخبرة، كل ذلك من أجل انطلاق النقاش الفلسفي والفكري.

(٢) تقرير الحقيقة: وهي التي تدلُّ أيضًا على أنَّ بناء العلاقات بين الأشياء والوقائع إنَّما ترد إلى علاقة الارتباط أو الانفصال، وهو أمرٌ يتعلَّقُ بالخبرة والممارسة التي راكمها الباحث أو المحاور.

(٣) استنتاج معمَّم: وهذا له معنى علمي بحيث ينطلق من الجزء إلى العام، ومن التالي إلى اللاحق عن طريق التجربة المكتسبة والتراكم المعرفي لتحديد علاقات بين الوقائع والأشياء وأجزاء الخبرة.

ونستنتج ممَّا سبق: أنَّ التجربة الراديكالية عند **وليام جميس** إنَّما تصدر عن فكرة الخبرة والتجربة، كعلاقات تحدد عن طريق حدود وألفاظ وتعاريف من أجل وصف وضعيات إيجابية للحقيقة.

إنَّ كلَّ الذي سبق عرضه في هذا الباب الثاني يوضح لنا أوجه الاتفاق والاختلاف بين كل من **شيلر** و**جون ديوي**، ثم **وليام جيمس**، أمَّا وجه الاتفاق؛ فالثلاثة معًا نجدهم أجمعوا رأيهم على سمو الموضوع على المحمول في علاقة الحقيقة، بينما كان الاختلاف فيما بينهم في البعد الإدراكي، حيث يجعل كل من الثلاثة الإدراك:

ومع ذلك نجد عالِم النفس والفيلسوف **وليام جيمس** يُقدِّمُ لنا بحثًا مخصصًا في ماهية الإدراك، حيث يجعلها مقتصرة في سؤال ما تحويه من عناصر وعوامل يتضمنها. من هنا كان الإدراك هو وظيفة وعي [٤١]، ومن ثَمَّ؛ فالعامل الأول الذي يتضمنه هو حالة الوعي التي يتم بها الإدراك، والتي تتضمن وجود الشعور، فالإدراك هو شعور بتوسط؛ فالشعور كموضوع

([٤١]) Leclercq, Bruno, Phénoménologie et pragmatisme: y a-t-il rupture ou continuité entre attitudes théoriques et attitudes pratiques ? Université de Liège, *Bulletin d'analyse phénoménologique* IV 3, 2008 (Actes 1).

- «إنَّ مصطلح (الفعل) الذي يستعمله هوسرل للتمييز بين المعيش القصدي والمعيش الغير القصدي، التي هي المحسوسات البسيطة»، (ص/ ١٠٣).

بحث على سبيل الوظيفة الإدراكية سيكون في لحظة أخرى من الوعي، هي إمَّا سابقة أو لاحقة عليها، من هنا نطرح التساؤل: هل للشعور أية وظيفة إدراكية [٤٢]؟

ولفهم الإدراك كموضوع سيكون علينا بالأساس النظر في طريقة استعمالنا للغة، وفي ارتباطها بالمعرفة، بمعنى آخر: في طريقة توظيفنا نحن للغة لنعبر بها عما نعرفه. هذه الطريقة قد تتخذ شكل معرفة باطنية خصوصًا عندما نقول: «نحن نعرف شيئًا»، وهنا كانت المعرفة معروضة على الحواس، أو ممثلة في صورة أو نمط، وقد تتخذ المعرفة أيضًا شكلًا خارجي بما نعبر عنه قائلين: «نحن نعرف هذا الشيء»، حيث صرنا هنا نعبر عنها في أحكام أو فروض. ومفاد ذلك أنَّ الإدراك متعلق بالمعرفة الباطنية والخارجية ممَّا يفضي إلى حصول شعور إدراكي. فالشعور لا يكون إلَّا إذا كان مُوجَّهًا ومنصبًّا على شيء يشعر وينتهي إلى غاية، وإذا كان الأمر غير هذا؛ فهو مجرد حالة حلم لا غير. وعليه يكون الشعور حالة من الوعي تصيب وتعرف بدليل من قول الفيلسوف الذي نحن في مسار دراسته.

يقول عالم النفس **وليام جيمس** بهذا الخصوص: «**ينطلق الشعور مثلما تنطلق البندقية، فإذا لم يكن هناك ما يتم الشعور به، أو ما يتم التصويب نحوه؛ فإنَّه لا يفعل شيئًا. وإذا ما ظهر أمامها شيء، لا تنطلق البندقية بل تصيب، ولا يشعر الشعور بل يعرف**» [٤٣]، وبهذا المعنى يكون الشعور والحقيقة وجهان لعملة واحدة، فالشعور هو الحقيقة بانتظار تحريره، والحقيقة هي الشعور بانتظار اكتشافها؛ ولهذا الكلام قصد مفاده أنَّ الحقيقة قابعة في الشعور وأنَّه يمكن للشعور تحويله إلى حقيقة.

([٤٢]) يمثل الإدراك ما هو شعوري في نفسه داخل منظومة الواقع، وحيثما يقع وجود للشعور ويثبت على ذلك يسمى هذا بدوره واقعًا، وبالتالي متى كان الشعور الحادث يمثل واقعًا؛ فهو بهذا المعنى يفيد على أنَّه إدراك، ورغم أنَّ هذا التصور قريب للإقناع إلَّا أنَّه يظل محدودًا في نظر **جيمس** لذلك وصفه بالنافورة «التي لا تستطيع أن ترتفع أعلى من مصدرها، التي يجب أن نعترف على الفور أنَّ النتائج التي نتوصل إليها تخضع دائمًا لإمكانية وقوعنا في الخطأ»، من ثمة هو يدعو إلى اعتبار الشعور «واقعة باطنية إيجابية ومحددة بصورة كاملة ولها صورتها الخاصة»، وليس حالة نفسية وضربًا من الحلم. انظر جيمس (وليام): «**معنى الحقيقة**»، ترجمة وتقديم أحمد الأنصاري، مراجعة حسن حنفي سنة (٢٠٠٨م)، (ص/ ٣٠ – ٣١ – ٣٢).

([٤٣]) جيمس (وليام): «**معنى الحقيقة**»، ترجمة وتقديم أحمد الأنصاري، مراجعة حسن حنفي، المركز القومي للترجمة القاهرة، الطبعة الأولى (٢٠٠٨م)، (ص/ ٣٥).

وعلى الرغم من صعوبة قول على أنَّ أحدهما يمثل الآخر، أو ينوب عنه؛ إلَّا أنَّه من الممكن أن نعتبرهما صفة لحالة واحدة، وبفصلهما سيصبح الأمر مختلفًا عن المألوف بالتأكيد؛ لكونهما حينئذٍ شيئًا فرديًّا محسوس قائم بذاته، فإن جردنا الصفة عن الشعور باتت بدون معنى، وكذلك العكس صحيح.

وكل شعور فِعْلِي يبين لنا أية حالة إدراك بتوسط كشيء أو واقعة أو فكرة تشير إليه، ولا ندركه إلَّا عند إدراك ذاك الجزء الذي أغفلناه فيه ممَّا يعني أنَّ وظيفة الإدراك هي تركيبية أكثر ممَّا هي تحليلية [٤٤]، فلنأخذ على سبيل التوضيح ثلاثة حالات (١) و(٢) ثم (٣) مترابطة، تجمعها حقيقة واحدة نسميها (X).

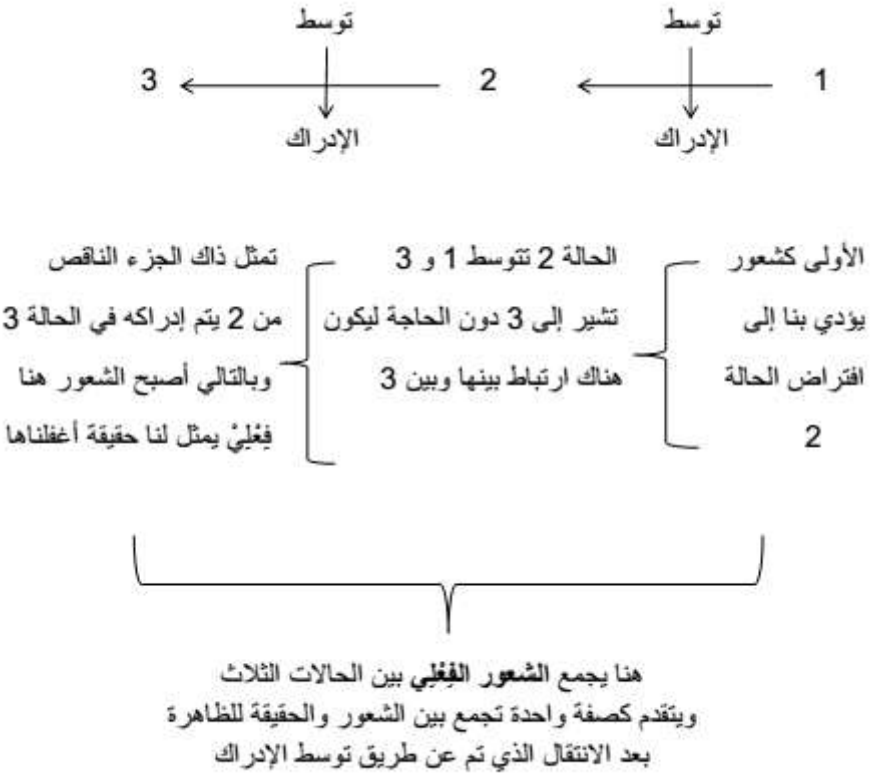

([٤٤]) وانطلاقًا من هذا نجد **جيمس** في معنى الحقيقة يقول: «**ويلاحظ أنَّ أهمية هذا التوضيح لوظيفة الإدراك تكمن في اكتشاف أن (ك) لا يوجد في مكان آخر غيره، ولا نستطيع في حالة عدم اكتشافنا هذه أن نتأكد من أن الشعور كان معرفة أو إدراك ... فالوظيفة عرضية، تركيبية وليست تحليلية، تقع خارج الوجود وليس داخله**». انظر (ص/ ٣٥).

ممَّا يدلُّ على أنَّ «**كلَّ شعور هو من أجل الأداء والعمل، وكل شعور ينتهي بعمل وينتج عنه أداء**» [٤٥]، وهذا ما يدفعنا إلى التصرف وفقًا للوقائع والحقائق وبمقتضاها أيضًا ما دام ليس هناك برهان ما يدحض هذا التصور؛ فعلى المعرفة أن تفتحنا على إمكان الاكتشاف والتطوير، ليس بالضرورة أن تتشابه هذه المعرفة بين عدة أفراد، بل من الممكن أن تكون المبادئ التي قد انطلق منها طرفان مختلفة، لكن نتج عنها واقع جديد وقد يكون العكس؛ أي قد ينطلق فردان من نفس المبدأ وينتهيان إلى نتيجة مغايرة، لكن هذا لا ينفي ارتباط يجمع بينهما، وهذا يعني أنَّ كِلَا «**الموضوعين الأولين مشتقان على الأقل من نفس الموضوع الثالث، ويمكن إن كانا متشابهين اعتبارهما يشيران إلى واقع واحد**» [٤٦].

إذن: المهم في واقع نختلف عليه أنَّه ما دام يقدم لنا تأثيرًا بالتشابه والإشارة إليه كنتيجة عن طريق تعديله لموضوعه الأول، أو عن طريق تعديله بعض الموضوعات الواقعية المصاحبة له أن يكون ممكن العمل على موضوعه إمَّا بصورة مباشرة، أو غير مباشرة: «**فإذا تشابه معه دون قدرته على العمل فيه كان حلمًا، وإذا ما استطاع العمل فيه دون تشابهه به كان خطأ**» [٤٧].

هكذا تصبح الكلمات مفهومة وبينة، بإرجاعها إلى واقع ما يقع وراء أفق الوعي المباشر والتي أنا على وعي بها فقط كنهاية عندما حققت لنا استقامة وسلامة المعنى، من هنا اعتبر الإدراك ما يعطي للكلمات وجودًا وتوجها، نحو اتجاه معين أفضت إليه حالة شعورية؛ **لهذا**: كان فحوى موضوع الكلمات هو ما أصبوا إليه بتفكيري فيه معلنًا هكذا على موافقتي على وجوده؛ إذ الوعي الإدراكي هو حالة شعور وانتماء منطقي مطابق للعقل وارتباط حقيقي له غايته.

انطلاقًا من هنا صاغ **وليام جيمس** قاعدته الأساسية حول وظيفة الإدراك إنَّها أن تعرف أخيرًا، يقول بهذا الصدد: «**المدرك يعرف أيما حقيقة أو واقع يعمل بمقتضاه ويشبهه بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة، والشعور المدرك حسيًّا يعرف الحقيقة أو الواقع كلما انتهت فعلًا فعلًا، أو كمونا بمدرك يعمل بمقتضى ذلك الواقع أو يشبهه أو بطريقة**

([٤٥]) جيمس (وليام): «**البراجماتية**»، ترجمة محمد علي العريان، تقديم زكي نجيب محمود، القاهرة. المركز القومي للترجمة، سنة (٢٠٠٨م)، (ص/ ٣٩٢).

([٤٦]) جيمس (وليام): «**معنى الحقيقة**»، ترجمة وتقديم أحمد الأنصاري، مراجعة حسن حنفي، المركز القومي للترجمة القاهرة، الطبعة الأولى (٢٠٠٨م)، (ص/ ٤١).

([٤٧]) المصدر نفسه، (ص/ ٤٢).

أخرى يرتبط أو بسياقه ومحتواه» [٤٨]؛ **وبالتالي**: فإنَّ ما ندركه كأشياء محسوسة هو ما يمكن أن نعتبره كحقائق نعرفها مباشرة، ورغم الاختلاف الذي يبدو في درجات المعرفة ونحت المصطلحات؛ إلَّا أنَّ هذا يعني أنَّه بمقتضى مدرك حسي قد نجزم عند التحرك نحوه بامتلاك شعور مماثل، لكن عند اختلاف الشعور من شخص إلى آخر يمكن أن نقول بأنَّ طرق معرفتنا بالأشياء تختلف عن بعضنا.

هكذا نخلص إلى أنَّ الإدراك هو في معنيين هما كالتالي:

– **المعنى الأول**: يكون فيه الإدراك يعرف الواقع الذي يشبهه، أو يعمل فيه مباشرة، أو بطريقة غير مباشرة.

– **المعنى الثاني**: قد يكون الإدراك إحساسًا، أي: عن طريق الخبرة العملية إذا كان شعورًا نهائيًّا، أو فكرة حسية تُؤخذ بالمنطق والعقل.

وبالتالي: فكُلُّ عملية إدراكية إلَّا وتستدعي تعديلًا وتغييرًا في طريقة التفكير ممَّا يؤثر بطبيعة الحال في نظرتنا للواقع، فتنطبع في هذا الأخير شعورًا نهائيًّا، إنَّه ما نفترضه الحد النهائي المحتمل للموضوعات التي تعد الوقائع التي نعرفها مباشرة، من ثمة كان جل عملنا الفكري هو استبدال لتصور بآخر أو لافتراض بغيره «**ورد الواقعة التي تم استبدالها أو البديلة إلى صورة نظرية أو علاقة تصورية أو مفهوم**» [٤٩]؛ ولهذا جعل **وليام جيمس** هدف كلِّ أنماط التفكير «**الوصول إلى هذه الحدود الحسية النهائية التي تضع حدًّا لمناقشاتنا. تقضي على معارفنا الزائفة. نسبح دونهم في بحر من المعاني المختلفة**» [٥٠].

([٤٨]) جيمس (وليام): «**البراجماتية**»، ترجمة محمد علي العريان، تقديم زكي نجيب محمود، القاهرة. المركز القومي للترجمة، سنة (٢٠٠٨م)، (ص/ ٤٠٢).

([٤٩]) جيمس (وليام): «**معنى الحقيقة**»، ترجمة وتقديم أحمد الأنصاري، مراجعة حسن حنفي، المركز القومي للترجمة القاهرة، الطبعة الأولى (٢٠٠٨م)، (ص/ ٤٧).

([٥٠]) المصدر نفسه، انظر: (ص/ ٤٧).

(٣) التفكير والمنهج داخل نمط إنساني:

إنَّنا لا نستطيع أن نفكر خارج الأشياء، إنَّ ما نقوم به هو إعادة تفسير الوجود في تواصل دائمٍ، وأغلب الظنِّ أنَّ الجهد الذي نبلغه يمرُّ على لحظةِ قياس الغائبِ بالشاهد ممَّا يجعل هكذا الموجودات حاضرة في تفكيرنا، بل إنَّ «**معرفتنا لها تعرَّف كحضور لتفكيرنا فيها**» [٥١] ممَّا يعني أنَّ تفكيرنا بالغائب هو ذو وجود حقيقي مباشر.

فالأفكار والموجودات منفصلة عن بعضها البعض، ونقطة الالتقاء بينهما هو ما شكل لنا معرفة لها سياق أو محتوى زودنا به العالم الأمر الذي يفسر سبب جعلنا مادة التفكير ومادة الشيء هما تتَّسِمان بنفس القيمة والخاصية؛ فالمعرفة إذن لا تتشكل لدينا إلَّا إذا مرَّت عن طريق مماثلة ومطابقة محتوى العالم؛ ولهذا: يَجعل الفيلسوف الأمريكي **وليام جيمس**«**كي تكون المعرفة مباشرة، أو بديهية؛ فلا بُدَّ وأن يكون المحتوى العقلي والشيء، مماثلين ومطابقين**» [٥٢].

إنَّ المنهج البراغماتي – أوَّلًا وقبل كل شيء – يدعو بضرورة إعادة اختبار التجارب في ظروف مختلفة، ويبحث في حالات قد تُفضي إلى نتيجة مغايرة لسابقاتها، ثم بعد هذه العملية يبدأ في معاينة خصائصها التي هي المنفعة والمطابقة والوضوح والمشاركة، وبالرغم من اعتبار **وليام جيمس** هذه الخصائص غامضة لأنَّها تصبُّ في العموميات إلَّا أنَّه يجعل من «**الطريقة الوحيدة لاختبار برنامج كهذا على الإطلاق هو تطبيقه على أنماط متعددة من الحقيقة ابتغاء بلوغ مستفاد أكثر دقة وضبطًا**» [٥٣]، وهذا لكونه يرجع بقيمة عملية مؤكدة، ألَا وهي أنَّ هذه المراجعة التي نقوم بها تفتحنا على الموضوع وتمكننا من الإحاطة برمته من كل جانب. وأيُّها أذكى طريقة تخرجنا من دائرة الاختلاف، إنَّها لحظة إدراكنا وتقبلنا بالوجود الدائم للأشياء، أي بالاختلاف والتعدد والوحدة، فكلُّ شيءٍ هو لأصلٍ واحدٍ؛ ومع بداية هذا التفكير – أي: تقبل الوجود الدائم للأشياء – تصبح لأفكارنا صفة التعقل والصدق والعقلانية.

([٥١]) جيمس (وليام): «**البراجماتية**»، ترجمة محمد علي العريان، تقديم زكي نجيب محمود، القاهرة. المركز القومي للترجمة، سنة (٢٠٠٨م)، (ص/ ٤١٤).

([٥٢]) المصدر نفسه، (ص/ ٤٢٠).

([٥٣]) المصدر نفسه، (ص/ ٤٣١).

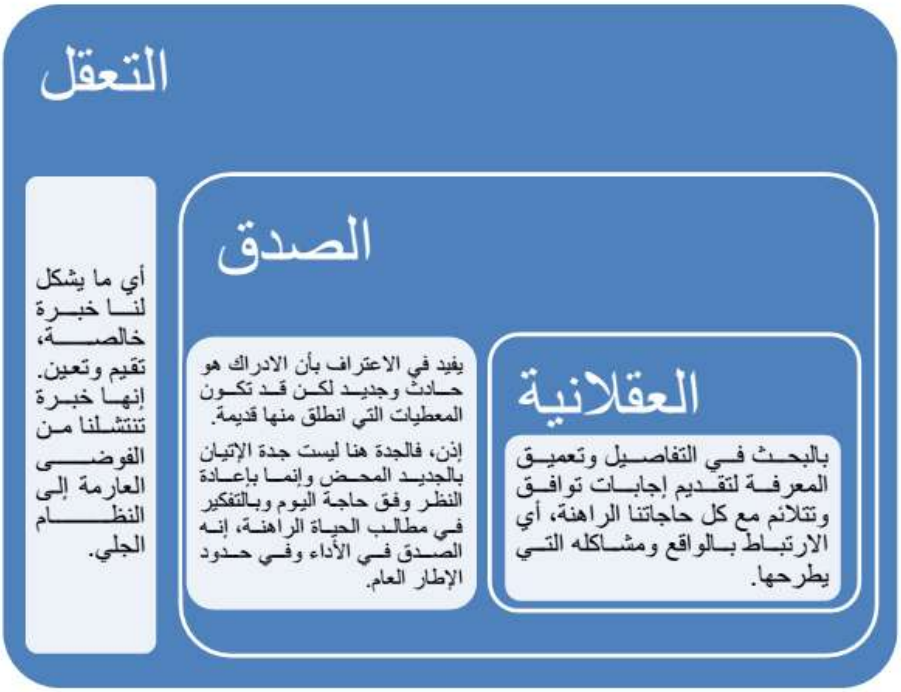

من الملاحَظ من خلال هذا الانتقال بين محاور البحث هنا أنَّنا سنقف عند لحظة حاسمة تتجسد في دعوى عدم احتكامنا إلى رغباتنا النفسية، وبأن نعبر عنها كأنَّها حقيقة، ولربما يبدو هذا تناقضًا منِّي إلَّا أنَّني أجد نفسي مُجبرًا على التذكير بالفرق بين ما هو شعوري، وما هو نفسي.

فالشعور هو ذلك الانطباع الأول الذي يحدث في النفس فيتبعها الإدراك، ثم يعمل العقل على عقلنتها، إنَّه شعور – كما قلنا – يماثل الحقيقة، ولا يمكن فصله عنها، إنَّه طاقة تدفع بنا للبحث والاكتشاف ممَّا يعني أنَّ صاحبه هو دائمًا في غمرة العمل والأداء ممَّا يلزم عنه التغيير والسيرورة، من هنا اعتبرت الحقيقة هي ما نعرف به، أي ما تعرضه، وتعلن به عن نفسها، إنَّها كما عبر **وليام جيمس** عنه: المضمون الشامل لكل ما هو ذو قيمة في حياتنا.

أمَّا النفسي فيمثل لنا دافع يحمل وراءه أسباب التعصب والفردانية ممَّا يتعارض كما هو معلوم مع الطريقة البراغماتية باعتبارها طريقة لينة ومرنة تقبل الاختلاف والتعدد ... إلخ، من هنا نفهم سبب استعمال **وليام جيمس** لمفهوم الشعور بدلًا من النفس؛ لأنَّ الأول هو صلة تربط بين الواقع وأسباب معرفته لبلوغ الحقيقة، بينما الثاني يتأرجح في دوافع الغيض لا تتناسب مع الشخصية العملية والعقلانية والواقعية التي تجعل العلم والحقيقة هدفًا وأسمى غاية؛ **لذلك**: كان النفسي لا يخدم الفكر البراغماتي على الأقل ليس كالشعور، كما قدم له الفيلسوف الأمريكي.

وأمَّا فيما يتعلق بصحة أفكارنا؛ فهي تشترط لتحقيق صحتها أن تكون مطابقة للشيء كحقيقة؛ بمعنى أن تحاكي الأفكار الحقيقة، فما الحقيقة إلَّا محاكاة العارف للمعروف بضرب من التوفيق والمطابقة، من هنا أصبح للمحاكاة معنى الأخذ بحسبان كل تفصيل من شأنه أن يقرر في بنية الوجود أو طبيعة الحقيقة مهما كان صغيرا، بمعنى أدق؛ أن آخذ بعين الاعتبار بين الفكرة التي أحملها والحقيقة المستقلة عني لدرجة أن أحاول التوفيق بين الأمرين ممَّا لن يعود على أحد الطرفين بإغفاله وتجاهله؛ **وبالتالي**: فالمحاكاة هنا تبدو كوحدة تدفعنا «**للدخول في علاقات متحدة مع الحقيقة والواقع**» [٥٤]، ومنه تتقرر الفكرة الصحيحة فيما تعدنا لإدراكه إدراكًا واقعي بالفعل، وأيضًا تعني إعدادنا لإدراك ممكن، أي: الفكرة التي توحي بإدراكات ممكنة أخرى قد لا يستطيع المتحدث معنا أن يشترك فيها. فالأفكار الممكنة التحقق توجد قبل الفعل؛ بل إنَّ وجودها كان نتيجة لصيرورة من الأحداث والأفكار كانت غامضة بالإضافة إلى أنَّها حقيقية، لكن بفعل البداهة وقعت للإدراك واكتسبت وجودها، وبهذا تصير الحقيقة نوعًا من الاعتقاد يصدقه المرء في لحظة معينة محققًا له الرضا والاشباع. **إذن**: عند هذا الجانب سيكون **وليام جيمس** مع نظرية المحاكاة حيث تتطابق العلاقات الخارجية والباطنية ممَّا يهب لنا قدرة على التنبؤ. في حين أنَّ الحقيقة تعتبر «**علاقة أجزاء تصورية ذهنية من خبراتنا بأجزاء حسية. والأفكار الصحيحة (الحقيقية) هي التي تقودنا إلى تفاعل بِرِّيٍّ مع تفاصيل محسوسة إبان حدوثها سواء أحاكت هذه مقدما أم لا**» [٥٥].

وفي جانب ثانٍ نجد عالِم النفس الأمريكي لا يوافق على محاكاة من زاوية الهندسة والمنطق (العلوم)؛ لأنَّ معناها هاهنا ووظيفتها العملية ستتغير «**فلقد افترض أنَّ الهندسة والمنطق لا بُدَّ، وأنَّهما تحاكيان أفكارًا نموذجية عند الخالق**» [٥٦]، ففي الطرح الأول للمحاكاة كانت هي مطابقة ما في الأذهان للأعيان، والآن سيتغير المعنى إلى نسخ أفكار الخالق، وهذا المجال مجرد وغير محدود سينتج عنه تعدد في الأشكال وهذا التعدد سيعود بالتشكيك في الأطروحات فيما بينها خصوص في شك الحاضر منها في السابق عليها.

ثم هناك صنف ثالث من المحاكاة وهو محاكاة الخالق، وفيلسوفنا هنا لا يعارض هذا النوع من النسخ مادام يقينا يقدم نتائج عملية، فإن كانت صنعة الإله مطلقة وثابتة فإن كل عملية محاكاة لهذه الصناعة من شأنها أن تفضي طريق المعرفة

([٥٤]) المصدر نفسه، (ص/ ٤٥٢).

([٥٥]) المصدر نفسه، (ص/ ٤٥٣).

([٥٦]) المصدر نفسه، (ص/ ٤٥٣).

حقة؛ لذلك يقول **وليام جيمس**: «**يقينًا، عملية المعرفة ليست إلَّا طريقة واحدة للتفاعل مع الحقيقة الواقعة والإضافة إلى نتيجتها**» [٥٧].

لا شكَّ أنَّنا نعرف كيف أنَّ مفهوم الحقيقة يختلف من فيلسوف إلى آخر، ومن حقبة زمنية لأخرى، من هنا كانت الحقيقة مرتبطة بتجربة حياتنا اليومية وهذه التجربة تعرف حقيقة أساسية هي أنَّها سبيل من التغير، ومن خلال هذا تكون كل تجربة وكل وجهة نظر ناقصة ولعل السبب الوحيد في جعل الحقيقة تنمو ضمن شروط وحدود هو لكونها خاطئة في الغالب، من ثمة كان هذا هو مرام وقصد عالم النفس والفيلسوف البراغماتي الذي حظي باهتمامنا حينما قال: «**في الواقع من الأمر يبدو أنَّها تنمو بتحديداتنا وإيجاداتنا الفكرية؛ لكون أن هذه ليست أبدا صحيحة تمامًا**» [٥٨].
إنَّها حقيقة تتأرجح بين الخلق كإبداع والإيجاد كمهارة واستقامة للمنهج، فكل حقيقة هي رهينة ظروف وشروط إنتاج، كما هي ما تدلُّ عليه من معنى، فإن تحقق هذا اللزوم عنها أنذاك يمكن وصفها بأنَّها حقيقة نفعية، تبتغي شيء وتحققه عن طريق تقديم نفسها كحقيقة قابلة للتجاوز، لكن ما يجعل منها نفعية صحيحة هو أنَّها قدمت بين طيات موضوعاتها حلولا لإشكالات راهنة لعصرها، أي بها تم الانتقال من دائرة أضيق لمجال أرحب وأوسع.

هكذا تتم عملية البحث عن الحقيقة – أولًا وقبل كل شيء – بالنظر في حاجتنا للإيمان بفكرة معينة، وهذا الإيمان محدد بمقتضى ضرورة يلزم عنه إدراك وتوسع في المعارف، من هذا الإدراك وفي نظرة عميقة للواقع كيف هو؟ وكيف نخرج من الأزمة التي يقزمنا فيها؟ كانت حاجتنا لمنهج عملي ولين بقدر ما هو شديد، أحادي بقدر ما هو تعددي، لنخرج من هذا المأزق، إنَّه مأزق «من أزمة الفهم إلى فهم الأزمة»، وهذا الخروج لا يتم إلَّا عن طريق مبادئ هي مبادئ التفكير النقدي.

([٥٧]) المصدر نفسه، (ص/ ٤٦٩).

([٥٨]) المصدر نفسه، (ص/ ٤٦٥).

على سبيل الختام:

نخلص ممَّا سبق: أنَّ مشروع البراغماتية هو مرتبط بنظرية المعنى والحقيقة، والتي ترتبط أيضًا بمفاهيم الاتفاق والتوافق والملاءمة والصدق، فمرجع الواقع هو أساس بناء النظرية وإنشاء المعنى عند **وليام جيمس**، حيث يتم النظر في شروط هذه الحقيقة وظروفها. كل ذلك لا يتحقق إلَّا عبر البداهة وتقرير الحقيقة والانسجام المعمم، كطريق نحو إنتاجها وتأسيسها والنظر في العلاقة بين الفكرة والموضوع، من حيث إنَّها تنتج لنا المعنى حول هذا العالم وإدراكه بصورة تستحضر الخبرة والتجربة الشعورية. وبهذا كيف ينجح الفكر النقدي في إخراج الحقيقة من أزمة الفهم إلَّا فهم الأزمة؟

ولقد تم النظر في أنظمة الحقيقة وأدواتها من وجهة نظر رورتي المختلفة والمتباينة، فالبراغماتي «**الجديد لا يلزم أن يخوض الصراع من أجل كل الحقيقة؛ لأنَّ هذه العبارة هي مفهوم عبثي ولا طائل من ورائه. ولأنَّ المفهوم يتعلَّق بالتصور المرآوي وبالواقع المباشر، وليس فقط أحد أوصاف هذا الواقع**» [٥٩]، ويتضح من هذا أنَّ البراغماتية الرورتية لها انعكاسات على نظرية التواصل تتمثل **أوَّلًا**: في نقد النزعة الماهوية وهو موقف يشارك به رورتيبراغماتيين آخرين. **وثانيًا**: أنَّ البراغماتية عند رورتي تزودنا باستعارات اختيارية في تصور التواصل والحقيقة [٦٠].

([٥٩]) مشروحي (الذهبي): أطروحة دكتوراه بعنوان: «**النزعة البراغماتية الجديدة عند رورتي**»، تحت إشراف محمد سبيلا، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، شعبة الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس، وحدة الحداثة وقضايا الإنسان المعاصر، سنة (٢٠٠٤م)، (ص/ ٢٩١).

([٦٠]) المرجع نفسه، (ص/ ٢٩١).